المحاضرة السابعة عشر: تابع فرض الحكم العسكري على الجزائر 1830-1870.

ثانيًا: الثورات الشعبية ضدّ المستوطنين:

في سنة 1870 تفاقمت المشاكل وازداد وضع الجزائريين سوءًا نتيجة لضغوط الجيش الفرنسي والمجاعة والأمراض التي قضت على الأخضر واليابس.

في الجزائر من 1866 إلى 1870 و مع انهيار السلطة السياسية في باريس ووقوع نابوليون3، أسيرا في يد الألمان بعد معركة **سيدان** استولى المستوطنون الاوربيون على السلطة في الجزائر و تخلصوا من جميع القيود، ففي الفترة الممتدة من 1866 إلى 1870 ارتفع عدد الاوربيين من 220 الف إلى 279 الف بينما انخفض عدد الجزائريين من مليونين و 700 الف إلى مليونين و 100 الف نسمة، وهذا معناه هلاك حوالي 600 الف جزائري بسبب الجفاف و مرض الكوليرا و الجراد، فابتداءا من 4 سبتمبر 1870 و هو اليوم الذي وقعت فيه الثورة ضد النظام الفرنسي استغل المستوطنون الفرنسيون في الجزائر الفراغ السياسي الموجود و قاموا بشن الحملات ضد بعض الشخصيات الجزائرية بدعوى انهم كانوا عملاء للإمبراطور نابوليون 3 و متعاونون مع المكاتب العربية المعادية للمستوطنين، وكانت نتيجة هذه الاضطهادات قيام ثورات معادية أو مضادة للحكم المدني للمستوطنين قادها زعماء القبائل و الشخصيات الجزائرية ذات النفوذ القوي في المجتمع[1].

كان أحمد باي شخصية بارزة في حياة المقاومة الجزائرية بالإضافة إلى الأمير عبد القادر، لكن عدم حدوث تقارب بين رواد المقاومة آنذاك ساعد المستعمر في التغلغل داخل البلاد والاستيطان تدريجيًا بكامل التراب الوطني ضف إلى ذلك الصراعات القبلية وعدم توحيد الجهود بين هذه القبائل حال دون تنظيم المقاومة من جديد وبنهاية مقاومة الحاج أحمد باي والأمير عبد القادر ستنطلق ثورات شعبية مختلفة أهمها:

1-ثورة الزعـــاطشـــة:

واحة تقع في جنوب غرب بسكرة، قادها " الشيخ بوزيان " أحد أتباع الأمير و الذي عاد إلى مسقط رأسه بعد استسلام الأمير. عند عودته وجد الواحة محتلة و التنصير يفتك بها، وأعلن الثورة التي شملت بسكرة ووصلت إلى الحضنة و الأوراس.

تعد مقاومة سكان واحة الزعاطشة من المقاومات الرائدة رغم قصر مدتها حيث دامت المواجهة أزيد من أربعة أشهر من 16 جويلية إلى 26 نوفمبر 1849.

أ-أسباب ثورة الزعاطشة

[1] نبيل بن حمزة، مرجع سابق، ص 11.

تشترك مقاومة الزعاطشة مع غيرها من المقاومات الشعبية في جملة من الدوافع وتختلف في البعض الآخر منها:[1]

- رفض الشعب الجزائري القاطع للاحتلال الفرنس؛
- صدى سقوط النظام الملكي الدستوري بعد الانقلاب الذي أحدثته الثورة الفرنسية عام 1848م، وقيام الجمهورية الفرنسية الثانية، وانعكاساتها على الأوضاع السياسية في الجزائر؛ منها عزل الحاكم العام الدوق "دومال"، ابن الملك "لويس فيليب"، واستخلافه بالجنرال "كافينياك" وذلك يوم 03 مارس 1848م. هذه الأحداث وانتشارها في منطقة الزيبان ساعدت بطريقة غير مباشرة في ارتفاع معنويات الثائرين بالمنطقة وعلى رأسهم الشيخ بوزيان الذي حاول استغلال أوضاع فرنسا المضطربة لإعلان الجهاد؛
- انشغال القوات الاستعمارية المرابطة في مقاطعة قسنطينة بقمع انتفاضات أخرى في أنحاء شتى من الوطن مما أتاح الفرصة للشيخ بوزيان لإعلان الجهاد ، مستغلا قلة عدد القوات الفرنسية المرابطة بمركزي باتنة وبسكرة و غياب القائد العسكري "سان جرمان" عن دائرة بسكرة وسعيًا منه إلى تخفيف العبء على المقاومات المتأججة هنا و هناك بتشتيت جهد القوات الاستعمارية؛
- الإصرار على مواصلة الجهاد كامتداد للثورة التي قادها الأمير عبد القادر باعتبار الشيخ بوزيان كان أحد أعوان الأمير؛
- ارتفاع الضرائب على النخيل ابتداء من شهر مارس 1849م من 0,25 ف إلى 0,40 فرنك للنخلة الواحدة؛
- التراجع عن مبدأ إعفاء المرابطين من الضرائب، مما أدى إلى اتساع دائرة التذمر فعرف الشيخ بوزيان كيف يؤطر هذا الاستياء في مواجهة قوات الاحتلال .حيث باشر اتصالات حثيثة مع رؤساء القبائل والأعراش، لتهيئة الشروط الضرورية لإعلان الجهاد كجمع المال وشراء السلاح وتخزين المؤن ...الخ. مما استرعى انتباه أعوان الإدارة الفرنسية، فقام الملازم "سيروكا" نائب المكتب العربي ببسكرة بالتحرك نحو الزعاطشة للقبض على الشيخ بوزيان، واصطحب معه شيخ بلدة طولقة ابن الميهوب و بعض الفرسان وتوجّه إلى واحة الزعاطشة، غير أنهم فشلوا في القبض على الشيخ بوزيان أمام الرفض الذي أبداه مناصروه، حينها عاد الملازم "سيروكا" إلى بسكرة وقدم تقريرا مفصلا إلى القيادة، مفاده أن جميع سكان واحات الزيبان ملتفين من حول الشيخ بوزيان، وأن الجهاد قد أعلن من مآذن مساجد الواحات. و لمعاينة الأوضاع عن قرب انتقل رئيس المكتب العربي الضابط "دي بوسكيه" إلى الزعاطشة يطلب من السكان تسليم الشيخ بوزيان لكنهم رفضوا و ردوا عليه: "..إننا نرفض أن نسلمكم الذي تطلبون وإننا سنقاتل عن آخرنا

[1] [د.ص.م]، «مقاومة واحة الزعاطشة 1849»، متوفر على الرابط: https://2u.pw/MSQBQ9JQ.

رجالا ونساء من أجله..".عندها تيقن "دو بوسكيه" أن روح الانتفاضة قد انتشرت في ربوع المنطقة.

ب- مراحلها:

مرّت مقاومة الزعاطشة بثلاث مراحل أساسية هي: مرحلة القوة ومرحلة الحصار ومرحلة التراجع[1].

1 - مرحلة القوة:

ذلك أن المرحلة الأولى بدأت بوصول الفرنسيين إلى الزعاطشة يوم 16 جويلية 1849م تحت قيادة العقيد "كاربوسيا" حيث شدد الحصار على الواحات، لخنق الثورة وإخمادها في مهدها؛ و القضاء على قائدها الشيخ بوزيان حتى يستتبّ لهم الأمن بالمنطقة غير أنه فوجئ بصمود الثوار، الذين أمطروا القوات الفرنسية بوابل من الرصاص قضت على 31 جنديا فرنسيا و جرح ما لا يقل عن 117، وبعد ساعات من الاشتباك اضطر العقيد "كربوسيا" إلى سحب قواته تحت ضربات سرايا مجاهدي أولاد نائل وبوسعادة و المسيلة ممن التحقوا بإخوانهم في الزعاطشة.لقد أعطى هذا الانتصار دعما معنويا وماديا للثوار وزاد في تأجيج المقاومة بين سكان المنطقة، فقام الشيخ المرابط سيدي عبد الحفيظ مقدم إخوان الرحمانية باعلان الجهاد، ولبى سكان واحات الزيبان النداء لتحرير مدينة بسكرة، فاصطدموا بالقوات الفرنسية بقيادة "سان جرمان" قائد دائرة بسكرة فوقعت معركة سريانة مع بزوغ الفجر شهر سبتمبر 1849 ورغم سقوط القائد الفرنسي سان جرمان قتيلا إلّا أن الجيش الفرنسي تمكن من إحكام الحصار، مما أجبر سيدي عبد الحفيظ على سحب ما تبقى من أنصاره.استغل الفرنسيون هذا الانتصار وازدادوا اصرارا على الانتقام من سكان واحة الزعاطشة و إن تقرر تأجيل المسألة إلى بداية فصل الخريف. قاد الجنرال "هيربيون" حاكم مقاطعة قسنطينة آنذاك شخصيا الحصار بعد أن عيّن العقيد "كربوسيا" خلفًا للعقيد سان جرمان.

2- مرحلة حصار الواحة:

باشر الجنرال هيربيون بتجميع قواته المقدرة بـ بأربعة آلاف وأربع مائة وثلاثة وتسعين (4493) جنديًا بـ" كدية المائدة " المحاذية لبلدة الزعاطشة يوم 07 أكتوبر 1849م صباحًا، ثم احتل الزاوية القريبة من الكدية و سيطرعلى مفترق الطرق المؤدية إلى واحة الزعاطشة لاسيما الرابط بين طولقة و الزعاطشة حتى يحول دون وصول أية امدادات ، ثمّ أعطيت الأوامر للمدفعية بقصف الأسوار لإحداث ثغرة فيها، إلا ان المقاومة المستميتة أجبرت القوات الفرنسية على التراجع بعد أن خسروا 35 قتيلاً من بينهم ضابط و147 جريحا، ثمّ تمكن الفرنسيون بواسطة المدفعية احتلال الزاوية ورفع العلم من على مئذنتها. ورغم ذلك واصل الشيخ بوزيان شحذ همم المجاهدين و أرسل رسله خفية إلى قبائل بوسعادة و أولاد نائل طالبا منهم المدد. غير أنّ الشيخ بوزيان استطاع أن يَنْفذ من هذا الحصار ويبعث الرّسل إلى مختلف الأنحاء.

3- مرحلة التقهقر و الإبادة:

---

[1] [د.ص.م]، «مقاومة واحة الزعاطشة 1849»، مرجع سابق.

طالب الجنرال "هيربيون" النجدة من الإدارة الاستعمارية المركزية في الجزائر وصدرت الأوامر للطوابير العسكرية للتحرك نحو الزعاطشة قادمة إليها من قسنطينة، باتنة بوسعادة، سكيكدة وعنابة، مما شجع المحاصرين من معاودة الهجوم يوم 26 نوفمبر 1849 بثمانية آلاف من الجند يقودهم الضابط "بارال "والعقيد "كانروبار" و لافارود و العقيد "دومانتال"، ناهيك عن العتاد الحربي، في حين ضربت بقية القوات حصارا خانقا على الواحة تحسبا لأي نجدة تصلها من مناطق أخرى.

أعْطيت الأوامر بإبادة سكان الواحة بما فيهم الأطفال، النساء والشيوخ وقطع أشجار النخيل مصدر رزق السكان، وحرق المنازل؛ ورغم ذلك صمد السكان، واشتبكوا مع الجند الفرنسيين بالسلاح الأبيض في الدروب، حتى سقطوا عن آخرهم، حوالي الساعة التاسعة صباحًا، ونكلوا بالجرحى. ونسفت دار الشيخ وسقط **الشيخ بوزيان شهيدا**، فأمر "هيربيون" بقطع رأس كل من **الشيخ بوزيان وابنه صاحب الـ: 20 سنة والشيخ الحاج موسى الدرقاوي** وتعليقهم على أحد أبواب بسكرة.

ج- نتائج المقاومة:

أ . انتهت مقاومة الزعاطشة بخسائر فادحة حيث خربت الواحة بكاملها حيث مارس فيها الفرنسيون أبشع أنواع التعذيب و الإجرام التي يندى لها جبين الإنسانية، بقطع رؤوس البشر وتعليقها على الأبواب أو على خناجر البنادق نكاية في الثوار، بينما خسر الفرنسيون 10 من ضباطهم برتب مختلفة و 165 جنديا قتيلا و إصابة 790 بجروح متفاوتة الخطورة، أما في صفوف الثوار تذكر المصادر الفرنسية العثور على 800 جثة وعدد أخر غير محدد تحت الأنقاض وقطعت أشجار النخيل عن آخرها.

ب . أثارت مقاومة الزعاطشة تضامنًا دينيًا ووطنيًا و استغراب العدو من إصرار السكان على إفشال مخططاته.

ج . احتلال مدينة بوسعادة، لأنها قامت بانتفاضة بقيادة محمد علي بن شبرة، وهو زعيم ديني دعا إلى الجهاد أثناء مقاومة الزعاطشة وأرسل بالنجدة إلى الشيخ بوزيان.

د . توسيع دائرة الانتقام بحرق واحة نارة الواقعة على وادي عبدي بالأوراس ، والتي لقيت نفس مصير الزعاطشة يوم 05 جانفي 1850 على يد العقيد "كاروبير"؛ بعد أن تقدم إلى القرية بقوة قوامها ثلاث فرق من الجيش استباح بها القتل والهدم وإحراق القرية.